انتشار اللغة العربية والحضارة الإسلامية في بلاد السودان الأوسط (تشاد أنموذجا)

محمد صالح يونس ضوّاي

مقدمة

بدأت الدعوة الإسلامية في الجزيرة العربية في السابع عشر من رمضان في الأربعين من مولد الرسول – صلى الله عليه وسلم – الموافق السادس من أغسطس سنة ست مئة وعشرة ميلادية. ولم تمض فترة طويلة حتى عمت جميع أقطار العالم، إما بفتح مبين وإما بحسن المعاملة والمعاشرة.

فالدعوة الإسلامية ليست ككل الدعوات السابقة التي غالبا ما تختص بأمة واحدة فقط، ولهذا فإن الفارق الجوهري بينها وبين الدعوات الأخرى هو العالمية التي اختصت بها دون غيرها، لمواكبتها لجميع مستويات الظروف الإنسانية. فوجد بعض المدعوون إليها هذه السمة المتميزة، فمالت قلوبهم ومن ثم دخلوا فيها باختيار وحرية تامة. ومن أولئك الذين نظروا في الإسلام ووجدوا فيه ما يسرهم ملوك الكانميين الذين كانوا سببا مباشرا في نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية في تشاد وأفريقيا بصفة عامة.

من هذا المنطلق فإننا نحاول معالجة هذه الدراسة، وقد اشتملت على مبحثين رئيسين وفي كل مبحث ثلاثة مطالب ثانوية ونقاط أخرى فرعية.

المبحث الأول: تحديد المفاهيم والإطار المكاني للبحث.

لعل من المفيد في مجال البحوث العلمية يجب علينا أولا تحديد مفاهيم البحث واحتواء إطاره المكاني، حتى تكون معالمه واضحة جلية أمام القارئ. لأجل ذلك حاولنا أن نمهد للموضوع – وهو انتشار اللغة العربية والحضارة الإسلامية في بلاد السودان الأوسط (تشاد أنموذجا) – بمبحث يحدد مفهوم الحضارة الإسلامية، ويصف الإطار المكاني الذي يهدف البحث إلى دراسته. ولتبيين ذلك لابد من تجزئة الموضوع إلى مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الحضارة الإسلامية

عرفها أستاذنا المرحوم عبد الرحمن عمر الماحي١، بقوله: «هي الشعور بالمسؤولية، والتفاعل مع عالم الشهادة، وإزالة الشر عن النفس».

يشير هذا التعريف إلى ثلاثة مستويات للحضارة الإسلامية: مستوى الاستشعار بالمسؤولية التي أناطها الله بالإنسان، وهي مسؤولية عمارة الأرض، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)٢. ومستوى التفاعل الحضاري مع الإنسان والكون، قال تعالى: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)٣. ومستوى القيم وتزكية النفس والسمو بها إلى عالم المثل، وفي هذه المرحلة ينتهي الجور ويتلاشى الظلم، وتسيطر في الناس روح التسامح والفضيلة، ويُجل بعضهم بعضا، وتصل كرامة الإنسان أعلى مراتبها؛ لأن عملية إزالة الشر عن النفس في فلسفة الإسلام تبدأ بالطهارة المعنوية، كالتطهر من الشرك والكفر والظلم، وتنتهي بالنظافة الحسية الجسدية، كنظافة الثياب والتطيب وغيرها من سنن الفطرة، يقول المولى عز وجل: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ .وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ .وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ. وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ)٤.

المطلب الثاني: الإطار المكاني لبلاد السودان الأوسط

كانت علاقة الجزيرة العربية بأفريقيا علاقة قديمة قدم التاريخ، لا يمكن لمثل هذا البحث أن يلم ببض أطرافها، فهناك بحوث كثيرة أنجزت في هذا الموضوع، فقد

جاء في بعض الكتابات العربية المتقدمة أن علاقة أفريقيا كانت ماثلة وبدأت تشتد منذ غزو الملك أبرهة الحبشي للكعبة المشرفة، وأكد تلك الحقيقة التاريخية الضاربة في القدم أولئك المسلمين الأوائل الذين لجؤا إلى الحبشة أيام النجاشي فرارا من البطش والتنكيل والتعنيف الذي لحقهم من قبل أقاربهم وذويهم القرشيين. وقد عجت كتب السيرة والتاريخ بهذا الحدث وتواترت الروايات عليه بما يجعل لهذا الاهتمام طعما خاصا لدى الباحثين من العالمين الشرقي والغربي .

ونظرا لشهرة هذا الخبر وذيوعه بين الأوساط العلمية والأكاديمية فإننا لسنا بحاجة إلى تفصيل القصة أو سردها كاملة، ولكن ما يجول في خلدي ومن ثم شكل تساؤلات عديدة هو : لم لمْ يتجه أولئك الفارين أو المهاجرين من مكة إلى بلاد فارس، أو مصر، أو على الأقل إلى إخوانهم في المدينة أو البحرين ... إلى غير ذلك من المناطق العربية المجاورة ؟ بالرغم من قربها من جهة والقرابة التي تربطهم من جهة ثانية . هذا ما نحاول التعليل عليه بقدر الطاقة البشرية وبما تمدنا به المعطيات التاريخية .

أولا: لعل السبب في ذلك يعود إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – باعتباره موجها ومرشدا ومشرعا بإذن من المولى عز وجل، ومن ثم يوجه قومه إلى محطة اللجوء الآمنة . ومن المعروف أن أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – لا يقطعون رأيا ولا يقصدون مقصدا إلا بعد استشارته واستطلاعه على ذلك الأمر، " وفي هذه الظروف نزلت سورة الزمر تشير إلى اتخاذ سبيل الهجرة، وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة "٥ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر : ١٠].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علم أن أَصْحَمَة النجاشى ملك الحبشة ملك عادل لا يظلم عنده أحد، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فرارًا بدينهم من الفتن .وفي رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة وكان مكونًا من اثني عشر رجلًا وأربع نسوة، رئيسهم عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم٦ .

ثانيا: إذا أمعنا النظر في الحديث الذي رواه ابن هشام عن النبي – صلى الله عليه وسلم – لما اشتد البلاء والتنكيل بالمسلمين " إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه "٧، إذا أمعنا النظر فيه فإنه يشعر بأنه عبارة عن جواب على استفسار في نفس المشورة، فلعل العدل الذي تميز به النجاشي كان هو الحافز الأول في اللجوء إلى الحبشة .

ثالثا: التفسير الأخير لهذه الحادثة، والذي نعلله بحسب المعطيات التاريخية للظروف السياسية الدبلوماسية والاجتماعية، فلعل هؤلاء المهاجرين إنما ذهبوا إلى الحبشية لخلفية معرفية مسبقة تقوم على التعامل التجاري الاحتكاك الحضاري بين أفريقيا والجزيرة العربية .

وإلى جانب تلك العلاقة الضاربة في القدم بين مكة وأفريقيا، فإن كتب التراث الإسلامي٨ لم تهمل هذه القارة ما دام أنها اندرجت تحت دار الإسلام، لهذا فقد حظيت بالوصف الجغرافي والتاريخي في كثير من المخطوطات العربية والإسلامية فشكلت هذه المخطوطات ضروبا من التفاعل الثقافي والحضاري بين الجزيرة وأفريقيا. ولهذا فقد أطلق بعض المؤرخين العرب المعاصرين على الجزء الأفريقي الواقع جنوب الصحراء وشمال الغابات المطيرة بلاد السودان وزاد بعضهم الإسلامية، والبعض الآخر اكتفي بتسمية أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، ويقصدون بذلك الحزام الإسلامي الممتد بين المحيطين الأطلسي والهندي، أي من نهر السنغال غربا إلى سواحل البحر الأحمر شرقا، ثم يقسمون هذا النطاق الواسع إلى ثلاثة أقسام: السودان الشرقي، والسودان الأوسط، والسودان الغربي٩ .

ولهذا فإن فالمقصود ببلاد السودان الأوسط في اصطلاح علماء التاريخ والحضارة هو: ذلكم الفضاء الممتد بين المحيط الأطلسي والمحيط الهندي، والذي يفصل بين أفريقيا الشمالية العربية وأفريقيا الغابية أو الوثنية.

والذي يهمنا في هذه الدراسة هو بلاد السودان الأوسط، أي دولة تشاد الحالية، في المطلب الثالث تحديد جغرافي لهذه المنطقة.

المطلب الثالث: وصف تشاد (الحدود – الأرض – الشعب)

سلفت الإشارة إلى أن المنطقة الفاصلة بين الشمال الصحراوي والجنوب

الغابي – إذا صح التعبير – تسمى بلاد السودان الإسلامي، لأسباب وعوامل سبقت الإشارة إلى ذكرها. وهذه المنطقة لم تشهد توزيعا جغرافيا قبل أن تطل عليها سفن الاستعمار الغربي، ولا شك أن هذا التقسيم في أصله مغرضة سياسية استعمارية بحتة. لذا أصبحت دويلات متمايزة، ومنها دولة تشاد الحالية.

• حدود تشاد الجغرافية

في عام ١٨٨٤م بعد مغادرة مقاعد مؤتمر برلين، حرصت كل من بريطانيا وفرنسا على السعي بقوة لحيازة أكبر قسط ممكن من أراضي أفريقيا الشاسعة، وذلك تحت مبرر السباق من أجل أفريقيا. وكانت مناطق غرب أفريقيا من حظ بريطانيا وفرنسا، خاصة المناطق الواقعة شرق نهر النيجر وغربه١٠ .

وفي عام ١٨٩٨م تم الاتفاق بين فرنسا وبريطانيا بموجب المادة الرابعة على أن " تعترف حكومة الجمهورية الفرنسية بان الإقليم الواقع في شرقي النيجر... يندرج في نطاق النفوذ البريطاني، وبالمقابل اعترفت حكومة صاحبة الجلالة البريطانية بأن الإقليم الواقع إلى الشمال والشرق والجنوب من شواطئ بحيرة تشاد ... يندرج في نطاق النفوذ الفرنسي "١١ .

ومن ذلك العام أي ١٨٩٨م ظلت حدود منطقة تشاد مضطربة، لتعرضها لعدة تعديلات في حدودها مع جيرانها، ولم تتحدد معالمها الحدودية بصورة كاملة ونهائية إلا في عام ١٩٣٦م بصدور قرار يضم مقاطعات (مايوكيبي، ولوغون، وشاري الأوسط) ومن هنا رسمت الحدود النهائية للدولة التشادية من كل الجهات١٢.

تمتد حدود دولة تشاد الحالية بين درجتي خط عرض ٨، ٢٣ شمالا، وبين درجتي خط طول ١٤، ٢٤ شرقا١٣ .

وتصنف تشاد في قائمة الدول المغلغة حيث تحيط بها ست دول عربية وأفريقية، فيحدها من الشرق جمهورية السودان الحالية، ومن الشمال الجماهيرية الليبية، ومن الغرب النيجر ونيجيريا، ومن الجنوب أفريقيا الوسطى، والكمرون من الجنوب الغربي.

وتبلغ المساحة الكاملة للدولة ١،٢٨٤،٠٠٠كلم، " وتختلف فيها الفصول اختلافا بينا، وهي تتقلب بين رطبة ممطرة إلى معتدلة فحارة منعشة إلى حارة في الصيف، لان فصول السنة ثلاثة فقط: الخريف، والشتاء، والصيف١٤ .

• مناخ تشاد

تعتبر دولة تشاد قلعة محصنة بالجبال من الشمال وبالغابات من الجنوب، فشمالها يتكون من جبال ذات أجزاء مرتفعة وسلاسل متراصة في شكل حلزوني، وجنوبها ملتف بالغابات الكثيفة والحشائش الغزيرة. أما من حيث المنخفضات، فأمهما نهري شاري ولوغون اللذان يشكلان المجرى الأساسي للدولة، إضافة إلى الوديان والجداول الموسمية .

وعموما فإن تشاد تنقسم من حيث المناخ إلى ثلاثة أقسام: إقليم صحراوي، وهو ثلث البلاد وتتضاعف فيه الجبال والرمال، وتنعدم فيه الأمطار والغابات، وإقليم شبه الصحراوي، وهو إقليم غني بالمزارع وصالح للرعي، وأمطاره موسمية، أما الإقليم الثالث فهو الذي تميل إليه أرض تشاد، الواقع في الجنوب الغربي " ويدل على ذلك اتجاه المياه من مختلف الجهات نحو بحيرة تشاد التي تقع في الجنوب الغربي "١٥ .

انطلاقا من هذا البيان المناخي للمنطقة، فإن مثل هذه الأرضية المتنوعة المتسعة لكافة أشكال الحياة الزراعية والرعوية حُق لها أن تستقطب جميع العناصر الثقافية والحضارية المصاحبة الدعوة الإلهية الخاتمة .

• شعب تشاد

إن من أعقد الأمور تفسيرا ما نلمسه في لغز المجتمع التشادي الذي ضم عددا كبيرا من العناصر المتعددة، الزنجية، والنيلية، والعربية، ثم إن هذا المجتمع بفضل اللغة العربية وتعاليم الحضارة الإسلامية أنصبت كافة أشكال حياته – الثقافية والحضارية والاجتماعية – في بوتقة واحدة.

لقد عرف هذا المجتمع الاستقرار منذ قيام الممالك الثلاثة، خاصة عندما مدت أيديها لتصافح العرب المبشرين بالإسلام، فساد النظام وعم الوئام بين الناس جميعا١٦.

ومن فضول القول أن نتناول هذا الشعب العريق بكل تصنيفاته وجزئياته الدقيقة، فهناك دراسات قد أنجزت في هذه المواضيع، لذا فإني أكتفي بهذه الإشارة العابرة، فضلا عن محدودية الدراسة، وأنها تميل إلى التحليل والتفسير لا إلى السرد التاريخي الممل.

ولعلنا ننهي هذه الفقرة بسؤال يفتحنا على المبحث القادم، ومن ثم يخلق إجابة شاملة.

ما السر وراء انتشار اللغة العربية والحضارة الإسلامية في حوض بحيرة تشاد وسرعة ذيوع آدابها وثقافتها حلى حساب العديد من الثقافات والآداب المنتشرة من قبل؟ هذا السؤال سيجيب عليه المبحث التالي في تناوله لقضية انتشار اللغة العربية والحضارة الإسلامية.

المبحث الثاني: انتشار اللغة العربية والحضارة الإسلامية في تشاد

تمهيد: عالمية الحضارة الإسلامية

لا شك أن الدين الإسلامي إلهي المنبع عالمي التعليمات والأحكام، فهو صالح لكل عصر ومصر، أراده الله لجميع الناس، وليس مقصورا ببلد دون آخر، ولا مرسل لمجموعة دون أخرى، وإن شكك في ذلك بعض المستشرقين وأشباههم، إما لأغراض أيديولوجية، أو سياسية أو غير ذلك . وهناك أدلة لا حصر لها تنص على أن الإسلام من عند الله مصدرا وإلى البشرية دينا، قال تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)) الأعراف . وقال أيضا: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧)) الأنبياء .

لقد تحققت عالمية الحضارة الإسلامية بأن عمت جميع قارات العالم، وأثبتت الدراسات العلمية أن الدين الإسلامي قادر على احتواء جميع نظم الحياة كلها. ومن تلك الأقطار التي ضمها شرع الله وترسخت فيه تعاليمه في فترة تاريخية مبكرة منطقة تشاد التي يتفق جل الباحثين المعاصرين على أن اللغة العربية والحضارة الإسلامية قد انتشرت فيها وتغلغلت في جذورها وتجلّت تعاليم الإسلام في الأرضية التشادية منذ عام ٤٦ هجرية/ ٦٦٦م١٧ .

فالدين الإسلامي" قد لعب دورا مهما في المساعدة على قيام الدولة الأفريقية، بل هو العامل الوحيد الذي أفضى إلى تجاوز التنظيم البسيط للمجتمعات العشائرية"١٨ .

وتجدر بنا الإشارة إلى أن العرب المسلمين القادمين إلى هذه المنطقة لم يألو جهدا كبيرا في نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية، بل وجدوا الأرضية خصبة صالحة مهيأة. يقول فتح الله الزيادي: "إن الإسلام قد شق طريقا إلى وسط وجنوب القارة الأفريقية السمراء بجهود بسيطة وسهلة، اعتمدت على التجار المسلمين الذين أحوجتهم ظروف العيش إلى دخول هذه البلاد، وقد رأى الأفريقي الوثني أو المسيحي في تصرفات هؤلاء التجار وسلوكهم الشخصي القدوة الحسنة التي أقنعته بصحة هذه الرسالة التي لا تقيم وزنا للون أو جنس أو جاه، بقدر ما تقيم وزنا لطاعة الله وتوحيده وحسن معاملة الآخرين "١٩ .

الطلب الأول: العوامل الممهدة لانتشار اللغة العربية والحضارة الإسلامية في تشاد

ساعد في انتشار اللغة العربية والحضارة الإسلامية في تشاد عاملان:

العامل الأول: عامل طبيعي، ويتمثل في التركيبة البيئية والاجتماعية والسياسية للمنطقة.

والعامل الثاني: خارجي، والذي يتمثل في طبيعة اللغة العربية والحضارة الإسلامية وسلوك العرب القادمين من الجزيرة العربية.

وفيما يلي شرح لهذين العاملين:

كان للعامل الطبيعي دور بارز في نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية وإرساء دعائمها، وذلك لعدة اعتبارات أهمها:

- **الخلو التام في المنطقة من أي دين سماوي أو طرح جدلي أو تلوث فلسفي.**

كانت المعتقدات الشائعة بين المجتمع التشادي قبل مجيئ حضارة الإسلام معظمها عقائد بسيطة وتافهة، تمثلت معظمها في عقيدة الإحيائيين، لذا فإن الإنسان التشادي لا يعير لها اهتماما كبيرا، بقدر ما يتوسل بها إلى القوى الكبرى لتكشف عن بعض أسرار الكون العجيبة. ولا يعتقد كذلك هؤلاء الإحيائية بأن هذه العقيدة ستقربهم إلى الله زلفى بقدر ما تقربهم من ميادين الفكر والروح والحياة. ومما شاع الاعتقاد به وشكّل طرحا فلسفيا ساذجا، الكهانة التي يدعي محترفوها الاتصال بعالم الأسرار، لجلب المنافع ودرء المفاسد، وكذلك الشعوذة التي شاعت عند التشاديين باسم(المصاص) حيث يمتص القوى الروحية والحيوية من الإنسان، ومن توابع الشعوذة، التخاطر بين التوائم، وقراءة الأثر لمعرفة السارق، وضرب الرمل والخط والودع لمعرفة الماضي واستلهام أخبار المستقبل٢٠ .

" وبينما كان المجتمع الإفريقي يموج في خضم هذه المعتقدات، ظهرت الدعوة

الإسلامية في مكة المكرمة، ومنذ العام الخامس من ظهورها دخلت أفريقيا بواسطة الصحابة السابقين الأولين "٢١ .

• السياسة الحكيمة التي اتبعها بعض السلاطين والقادة

جاء الإسلام مادا يده من أجل السلام عن طريق التجارة والرحلات فوجد فيه السلاطين والقادة ما يدعوهم إليه فدخلوا في دين الله بالتأمل والتدبر والنظر، ثم إن هؤلاء السلاطين لم يكتفوا بذلك بل حملوا الدولة على تطبيق قوانين الإسلام لتثبيت أركانه في الدولة الإسلامية الناشئة، ولكن دون خدش لمشاعر الرعية ولا مصادرة لعقائدها القديمة، وهذا المبدأ الذي يقوم على حرية العقيدة والاختيار هو الذي قاد هؤلاء الإحيائيين والوثنيين إلى اعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية وطرح براثن الكفر والشرك، ومن هنا بدأ الناس يتحررون من دوائر الوثنية المغلغة إلى أن دخلوا جميعا في دين الله أفواجا.

• تشكل المنطقة بحكم وجودها

بين الحجاز والقاهرة ودويلات غرب أفريقيا وطرابلس ونواكشوط سوقا رائجا وملتقى ثقافيا منسبا ومعبرا آمنا لحجاج بيت الله الحرام، فتشاد بالنسبة لجاراتها آنذاك كواسطة العقد المزركشة، حيث لحمت بين الصحراء والغابات من جهة، ومزجت بين الحضارات العربية والأفريقية من جهة أخرى.

العامل الخارجي:

قام هذا العامل هو الآخر بدور كبير تجاه نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية، بوصفه عاملا أصيلا لطبيعة اللغة العربية والحضارة الإسلامية، فالعرب المسلمين إنما نقلوا لغتهم وحضارتهم إلى الأفارقة بطيب الخاطر وإخلاص الضمائر وحسن التعامل ... إلى غير ذلك من الصفات الحميدة التي رافقة العرب القادمين. لذا نجح العرب المسلمين في نشر لغتهم وحضارتهم، وقد ساعدت على ذلك عدة عوامل منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- طبيعة اللغة العربية والحضارة الإسلامية، وكيفية تقديمهما للناس، قال تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)) النحل .فهذه الدعوة الحكيمة، والمجادلة التي اتسمت بالأسلوب الحضاري حتما ستصل إلى مبتغاها .

٢- التفاعل الحضاري بين الأفارقة والمسلمين الفاتحين، حيث نقلوا عاداتهم وتقاليدهم وثقافاتهم وسلوكهم إلى أفريقيا٢٢ .

٣- " ولعل التجار لم يكونوا وحدهم في ميدان الدعوة، بل كان يساندهم في جهودهم هذه جهود أخرى تمثلت في تلك الطرق الصوفية الكثيرة التي انتشرت في أرجاء القارة الأفريقية، وأسست لها مراكز وزوايا لنشر الإسلام وشرح تعاليمع وتعليم القرآن واللغة العربية "٢٣ .

٤- الثغور الإسلامية٢٤. هي الأخرى أسهمت إسهاما كبيرا في نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية، وإن كانت تلك الإسهامات قد أغفلها كثير من الباحثين والمؤرخين . وضعت هذه الثغور أساسا لحماية قفى الخلافة الإسلامية في تركيا، وكذلك وضعت لحراسة مناطق الضعف التي تجاور الأعداء كالبيزنطينيين والروم والأسبان، ومن مهام الثغور الدحر عن ظهراني الدويلات والسلطنات الإسلامية التابعة للخلافة .

المطلب الثاني: مساهمة الملوك والسلاطين وتعاونهم مع العرب الفاتحين

" كان لسلاطين كانم دور بارز في نشر ثقافة الإسلام بين أمم السودان الغربي والأوسط ويأتي في مقدمتهم السلطان(أومي جلمي) الذي كان أول من اعتنق الإسلام من سلاطين كانم، وإليه يعود الفضل في إقامة الدولة على أسس متينة من القيم الأخلاقية ، والقوانين المستمدة من القرآن الكريم والسنة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم "٢٥ .

وقد قام السلطان (أومي جلمي) من توه بمهمة عظيمة، حيث استطاع أن ينقل رعيته من تلك الدوائر المغلغة إلى فضاء واسع الأفق ليشموا من نسيم الإسلام الذي ينقدح في الفطرة السليمة كما تنقدح رائحة المسك في الأذواق السليمة . ونقّل مجتمع مشبع بخرافات وعادات وتقاليد استمدها من ثقافته وبيئته إلى دين آخر أمر في غاية الصعوبة ويحسب له حسابات في تسيير سياسة الدولة والمحافظة على أمنها ونظامها، لكن السلطان جلمي بحكم ثقافته وسياسته الحكيمة استطاع

أن يرفع رعيته إلى أرقى سلالم الحضارة الإسلامية .

وقد شد من أزر السلطان جلمي في هذه المهمة عدة أمور منها: العدل الذي كان يتمتع به من قبل، والصدق في النية، وسماحة الطبع ونبل الخاطر... فضلا عن توفيقه في حسن اختيار أعوانه ومستشاريه٢٦ .

قضى السلطان جلمي نحبه في ١٠٩٨م تاركا وراءه خلق كثير ممن اعتنق الإسلام وما زال البعض الآخر يتفكر فيه ويتدبر أمره، ولما أسند الحكم إلى ابنه السلطان (دونامة) (١٠٩٨ – ١١٥١م) سار في نفس الخط الذي سار عليه أبيه من قبل، فقد عمق جذور العقيدة الإسلامية في المنطقة، وقام بتوسيع دعوته حتى خارج البلاد إلى أن وصلت دعوته بلاد الهوسا وجنوب بحيرة تشاد٢٧ .

ومن أهم أولئك السلاطين الذين قاموا بإرساء دعائم اللغة العربية والحضارة الإسلامية في تشاد السلطان (سالما) (١١٩٤ – ١٢٢٠م) الذي عرف عصره بالعلم، فقد شجع العلماء وقربهم منه وقلدهم أوسمة تكريمية وقدم لهم المنح المالية، وأمر بتشييد المساجد وإقامة الشعائر وبناء المدارس، لتعليم القرآن الكريم وتدريس علومه للكبار والصغار٢٨ .

ومن جليل ما قام به السلطان (سالما) كان أول من بعث كسوة للكعبة المشرفة من سلاطين وملوك السودان كله٢٩ .

ويمكن القول بان عصر ازدهار الحضارة الإسلامية في تشاد قد تحقق في عهد السلطان (سالما الكانمي) لرسوخ الدعوة ، وتجاوزها إلى مرحلة التعليم والتثقيف والرخاء الذي ساد المنطقة، وكسوة الكعبة أدل دليل على ذلك .

وإذا كان السلطان (جلمي) هو الأرضية التأسيسية للغة العربية والحضارة الإسلامية، باعتباره أول من اعتنق الإسلام وجعله دستورا للدولة، والسلطان (سالما) قد وطّد أركان تلك الدعوة الإسلامية بإنشاء المدارس وبناء الماجد، فإن السلطان (دونامة بن دابال) هو الشخصية الحقيقية لاقتلاع جذور الشرك والوثنية، إذ قضى على كل الأوهام التي لا زالت محك جدل بين الناس، لتحطيمه معبد ميون الوثني، فقطع السلطان (دابال) الطريق أمام المشككين فيما إذا كانت هذه الأوثان تنفع أم لا٣٠ .

المطلب الثالث: المؤسسات التعليمية ودورها المتميز في نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية

كان أول ما رافق الحضارة الإسلامية في الجزيرة العربية هو الأمر بالقراءة وتشجيع العلم، وذلك بنزول أول آية في القرآن الكريم (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)) العلق . انطلاقا من هذه الآية حث الدعاة الأوائل على التعليم باعتباره عنصرا مهما في تشييد صرح الحضارة .

وقد تتالت الحقب التاريخية على مر عصور الحضارة الإسلامية، تقدم العلم للناس جميعا، ولم تبخل منه بشيء على الأمم الأخرى، لأن الإسلام هو الذي قرر بأن العلم ليس مقصورا على أحد، فضلا عن عقوبة كاتمه ومخبئه، (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) البقرة .

إن الحضارة الإسلامية أينما وجدت الأسباب تنمو وتزدهر، فلم تستطع تلك الغارات أن تطمس معالمها من الوجود، بل إن المؤسسات العلمية والمدارس الفقهية تكاد تكون ركنا أساسيا في كل قطر يسكنه المسلمون.

ومنطقة حوض بحيرة تشاد باعتبارها عضو لا يكاد ينفصل عن بقية أعضاء الأقطار الإسلامية الأخرى ساهمت في توسيع رقعة الحضارة الإسلامية لتبنيها وظائف اللغة العربية- من تعليم وتدريس وتثقيف – منذ فترة مبكرة من تاريخها، لأن" وضع الدولة الإسلامية الجديدة الناشئة جعلها تشجع العلم وتطلب العلماء، فاتخذ سلاطينها وأمراؤها من العلماء مربين لأبنائهم "٣١ للتعرف على مسائل الدين الضرورية والتعمق في أبعاده الفكرية .

ونظرا لذلك فقد تنوعت المؤسسات العلمية للدولة فمنها ما هو مختص بتحفيظ القرآن الكريم ومنها ما هو مقصور على تدريس العلوم اللغوية أو الفقهية أو الفكرية . وباختصار شديد فإن أهم مراكز التعليم ومؤسساته الحضارية تتمثل في الآتي:

- **مؤسسة المسجد**

المسجد هو أول المؤسسات التي انطلق منها شعاع التفكير والعلم والمعرفة ، وهو يحمل خاصية أساسية بالنسبة للحضارة الإسلامية، و له أهمية كبرى ودور عظيم

في تنمية العقل البشري ورقيه .

ويعتبر المسجد منهلا للعلم والمعرفة، والموجه الأول في حياة المسلمين، وقد حث النبي – صلى الله عليه وسلم – أصحابه على بناء المساجد واتخاذها أماكن للتعليم والتثقيف واستقبال الوفود ، وإقامة شعائر الله فيها ، وموضعا للحوار والقضاء، لفض الخصومات والنزاعات بين الناس .

وقد توسعت دائرة المسجد العلمية والدعوية مع تقدم المسلمين عبر العصور، فلما بلغت الحضارة الإسلامية أوج نهضتها بالفتوحات المختلفة وانفتح العالم على المسلمين أصبحت المساجد في الأمصار الإسلامية بمثابة المراكز العليا للبحوث والدراسات المختلفة، ومنارة تشع منها أضواء المعرفة، حيث نجد أغلب علماء هذه الأمة من فقهاء ومقرئين وأطباء ولغويين وفلاسفة ... أغلبهم تخرجوا في المساجد وكتبوا مؤلفاتهم في المساجد، وكان انطلاقهم هذا من مبدأ ديني ومنهج علمي اتبع الطريقة التي سار عليها كتبة الوحي من الصحابة كزيد ومعاوية وعلي رضوان الله عليهم ، وعلى هذا المنهج سار الإمام مالك فألّف كتابه " الموطأ " في مسجد الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، وألف الشافعي كتابه " الأم " في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، وفي مسجد البصرة خرج الخليل بن أحمد الفراهيدي بمعجم اسمه " العين " ، إلى غير ذلك من روّاد اللغة والفكر ممن تخرجوا في مسجدي البصرة والكوفة اللتين اشتهرتا باللسان وعلم الكلام.

من هذا المنطلق، فقد تأثر المسجد في منطقة حوض بحيرة تشاد بطابع المساجد الإسلامية الكبرى في بنائه وتنظيماته وتخصصاته، لأن " التعليم في المساجد في كانم يعنى أساسا بدراسة القرآن الكريم وقواعد الصلاة والكتابة وبشئ من قواعد التوحيد وبعض كتب التصوف والمدائح النبوية "٣٢ .

ولا شك أن مؤسسة المسجد في (كانم ووداي) قد خرجت العديد من الدعاة والمثقفين الذين ذاع صيتهم فيما بعد في جميع أصقاع العالم الإسلامي ومن هولاء الشيخ أحمد بن فرتو مؤرخ بلاط سلطنة كانم، والعالم محمد صالح بن اشاركوا، والشيخ عبد الحق الترجمي، والشيخ عليش عووضة الذي ترك أثرا علميا جليلا في مدينة أبشى ولا زال ينمو ويتطور إلى يوم الناس هذا، وقد خرّجت هذه المؤسسة التي عرفت باسم (معهد أم سيوقو العلمي الإسلامي) العديد من رجال العلم والفكر والثقافة في الوقت الحاضر، وهؤلاء بدورهم قد أحدثوا نقلة ثقافية وحضارية للشعب التشادي الحديث٣٣ .

ونظرا لمحدودية البحث وتوخي الاختصار وعدم التطويل الممل، فإنني إلى بقية المؤسسات التعليمية التي كان لها اليد الطولى في نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية، ومن ذلك (المسيج) وهو مصطلح تشادي يطلق على الموضع الخاص لتعليم القرآن الكريم، اشتقت مادته من الكلمة العربية (مسجد) ثم طرأ عليه التحريف بعد ما صغر . وقد قام بدور كبير في تفعيل نشاط حفظ القرآن الكريم وتجويده، ونظرا لاندراج المسيج تحت مجالات الدراسات القرآنية فإن التفصيل الذي سبق في مؤسسة المسجد يكفي . ومن تلك المؤسسات التي أدت رسالتها الحضارية مؤسسة (الكتاتيب)، بوصفها تابعا من توابع الحضارة الإسلامية، لأنها مبنية من فهم ديني صحيح، حيث لا يدرس في الكتاتيب إلا من نضج عقله واستقامت سلوكه، لاستيعاب المسائل ذات القضايا المتشعبة، كعلم العقائد وعلم الكلام، وعلم أصول الفقه ...

خاتمة

نستخلص مما سبق في هذا البحث نقاط مهمة تكاد تكون أهم النتائج المترتبة على انتشار اللغة العربية والحضارة الإسلامية في بلاد السودان الأوسط (تشاد) وهي:

١- انتشار اللغة العربية والحضارة الإسلامية في تشاد أدى إلى تغيير في القناعات وأساليب التفكير الحقيقة التي لا يمكن إنكارها أن أرضية هذه المنطقة كانت مستعدة لاستقبال اللغة العربية والحضارة الإسلامية، لخلوها من المعوقات الطبيعية المتمثلة في سيطرة العقائد الوضعية على المنطقة، وعدم وجود لغة علمية قبل اللغة العربية، وعزز من هذا الجانب حسن استقبال السلاطين للعرب والمسلمين الفاتحين. ونظرا لهذا الجو الصافي فقد اعتنق السلاطين دين الإسلام لحقائقه المتجددة ومشروعاته المتحققة، فلما أعلن السلطان جيمي إسلامه تغيّرت كل أنماط الحياة الفكرية والسياسية والقانونية والاجتماعية، وحل مكانها شرع الله الذي أراده للإنسانية.

٢- انتشار اللغة العربية والحضارة الإسلامية في تشاد أدى إلى تغيير في الاهتمامات والمهارات الجدير

بالملاحظة أن السلاطين قبل أن يشرح الله صدورهم للإسلام كانت جل اهتماماتهم تنصب في الصيد واللهو والتنعم بالخمور والرقص... أما بعد انقداح عقيدة الإسلام في صدورهم تبدلت كل تلك الاهتمامات التافهة وأخذ السلاطين يهتمون بالعلم ونشر الدعوة وكل ماله علاقة بطاعة الله عز وجل . وتبعا لذلك فقد تطورت المهارات هي الأخرى بتقدم العلوم وتفنن الناس في كل مجالات الحضارة، المعمارية والتجارية والزراعية .

٣- انتشار اللغة العربية والحضارة الإسلامية في تشاد أدى إلى تغيير في العلاقات والقدوات والثقافات من المسلم به عند علماء الشريعة الإسلامية أنه لا يجوز للرجل الجمع بين أكثر من أربعة نسوة، وكذلك أنه لا تحل العلاقة بين الرجل والمرأة دون عقد صحيح، كان هذا بعد انتشار الدعوة الإسلامية أما قبل ذلك فكان العرف هو الذي يحكم ولم يكن هناك حد معين للزوجات، وكانت معظم هذه العادات منتشرة في المجتمعات الوثنية، فلما جاء الإسلام حد من كمية الزوجات وحث على الزواج ونهى نهيا محرما عن الزنا وكل أشكال العلاقات الفاسدة . ومن ثم تبدلت القدوة أيضا فكان الناس يقولون: (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣)) الزخرف . ثم أصبحت القدوة هي شخصية النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – وذلك منذ أول صرخة علنية بالدعوة . وقد تغيرت الثقافة هي الأخرى وأخذت شكلا مغايرا للشكل الأول، بل انصبغت بصبغة إسلامية، ففي مجال الأدب فإن المديح يشكل أكثر الموضوعات الشعرية تداولا بين الشعراء .

ثبت المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- السيرة النبوية، محمد بن إسحاق
- الرحيق المختوم- صفي الرحمن المباركفوري

١. تاريخ دار فور، جوستاف ناختيغال، ترجمة وتعليق: النور عثمان أبكر، ط١، ٢٠١١م الشركة العالمية للطباعة والنشر .

٢. دبلوماسية الحدود في أفريقيا، د. البخاري عبد الله الجعلي، ط١، الدوحة، ٢٠٠٤م .

٣. تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال، أ.د .عبد الرحمن عمر الماحي، ط١، ٢٠٠٩م، منشورات دار الأصالة والمعاصرة بالجماهيرية العظمى .

٤. مجتمعات وسط أفريقيا بين الثقافة العربية والفرانكفونية، تأليف/ د. محمد صالح أيوب، منشورات مركز البحوث والدراسات الأفريقية – سبها – ١٩٩٢م.

٥. ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، أ. د. محمد فتح الله الزيادي، ط٢، ٢٠٠٢م، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، .

٦. الدعوة الإسلامية في أفريقيا الواقع والمستقبل، أ.د . عبد الرحمن عمر الماحي، ١٩٩٩م، منشورات كلية الدعوة الإسلامية .

٧. الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم، فضل كلود الدكو، ط١، ١٩٩٨م، منشورات كلية الدعوة الإسلامية.

الهوامش

١ – رئيس جامعة الملك فيصل بتشاد منذ تأسيسها حتى وفاته عام ٢٠١٣م.

٢ – سورة البقرة، من الآية: ٣٠.

٣ – سورة الحج، من الآية: ٤٠.

٤ – سورة المدثر، الآيات: ١ – ٧.

٥ – ينظر: الرحيق المختوم- صفي الرحمن المباركفوري.

٦ – ينظر: المرجع نفسه .

٧ – ينظر: السيرة النبوية، محمد بن اسحاق .

٨ – ينظر في ذلك مثلا: مروج الذهب، للمسعودي، وصبح الأعشى، القشقلندي، والإحاطة في أخبار غرناطة، إبراهيم الأنصاري، وتاريخ ابن خلدون .

٩ – تاريخ دار فور، جوستاف ناختيغال، ترجمة وتعليق: النور عثمان أبكر، ص٥، ط١، ٢٠١١م الشركة العالمية للطباعة والنشر .

١٠ – دبلوماسية الحدود في أفريقيا، د. البخاري عبد الله الجعلي، ط١، الدوحة، ٢٠٠٤م .

١١ – المرجع نفسه، ص١٧ وما بعدها .

١٢ – تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال، أ.د .عبد الرحمن عمر الماحي، ص١٨٨، ط١، ٢٠٠٩م، منشورات دار الأصالة والمعاصرة بالجماهيرية العظمى .

١٣ – المصدر نفسه ، ص١٨٩ .

١٤ – المصدر السابق، ص١٨ وما بعدها .

١٥ – المصدر نفسه، ص١٦ .

١٦ – المصدر السابق، ص٨٧ .

١٧ – من العلماء والمؤرخين التشاديين الذين اتفقوا على هذا التاريخ، عبد الرحمن عمر الماحي، ومحمد صالح أيوب، وفضل كلود.

١٨ – مجتمعات وسط أفريقيا بين الثقافة العربية والفرانكفونية، تأليف/ د. محمد صالح أيوب، ص٦، منشورات مركز البحوث والدراسات الأفريقية – سبها – ١٩٩٢م .

١٩ – ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، أ. د. محمد فتح الله الزيادي، ص١٣٤، ط٢، ٢٠٠٢م، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، .

٢٠ – الدعوة الإسلامية في أفريقيا الواقع والمستقبل، أ.د . عبد الرحمن عمر الماحي، ص٢٢، ١٩٩٩م، منشورات كلية الدعوة الإسلامية .

٢١ – المصدر نفسه، ٢٣ .

٢٢ – الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم، فضل كلود الدكو، ص١٢٥، ط١، ١٩٩٨م، منشورات كلية الدعوة الإسلامية .

٢٣ – ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، مرجع سابق، ص١٣٥ .

٢٤ – وتعتبر حراسة الثغور عبادة من العبادات العملية التي أقرها الشارع منذ بداية الدولة الإسلامية في عهدها الأول وأيام خلفائه، حيث شجع النبي – صلى الله عليه وسلم – على حراسة الثغور لحفظ أمن الدولة وحمايتها من غارات الطامعين، فقال: « رِبَاطُ يَوْم فِى سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ». وقد كانت توسم في ذلك العهد بالرباط، ومدينة الرباط الحالية أدل دليل على ذلك، وظلت هذه العبادة قائمة طوال امتداد عصور الدولة الإسلامية، وما إنْ سقطت هذه الدولة على يد العثمانيين وجد الغرب الباب مفتوحا على مصراعيه ففاروا على العالم الإسلامي وقسموه إربا إربا، وهذا ما أطلق عليه المفكر الإسلامي مالك بن نبي بالقابلية الاستعمارية .

٢٥ – الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم، مصدر سابق، ص٩٦ .

٢٦ – المصدر نفسه، ص٩٧ .

٢٧ – المصدر السابق، ص٩٩ .

٢٨ – المصدر السابق، ص١٠٣ .

٢٩ – المصدر السابق، الصفحة نفسها .

٣٠ – المصدر السابق، ص١٠٥ .

٣١ – المصدر السابق، ص١٥٠ .

٣٢ – المصدر السابق، ص١٥٥ .

٣٣ – مثال ذلك: الباحث في الشؤون الاجتماعية والتاريخية الدكتور محمد صالح أيوب، والكاتب والأديب الألمعي الدكتور حسب الله مهدي فضله .